**حكمة خلق الله للكائنات**

**ابن القيم الجوزية**

**من كتاب طريق الهجرتين**

**وباب السعادتينذ**

**المقصود فى بيان شمول حمده سبحانه وحكمته لكل ما يحدثه من إحسان ونعمة وامتحان وبلية وما يقضيه من طاعة ومعصية والله تعالى محمود على ذلك مشكور حمد المدح وحمد الشكر اما حمد المدح فالله محمود على كل ما خلق اذ هو رب العالمين والحمد لله رب العالمين واما حمد الشكر فلأن ذلك كله تعمة فى حق المؤمن إذا اقترن بواجبه من الاحسان والنعمة اذا افترنت بالشكر صارت نعمة والامتحان والبلية اذا اقترنا بالصبر كانا نعمة والطاعة من اجل نعمه واما المعصية فإذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والانابة والذل والخضوع فقد ترتب عليها من الاثار المحمودة والغايات المطلوبة ما هو نعمة ايضا وإن كان سببها مسخوطا مبغوضا للرب سبحانه ولكنه يحب ما يترتب عليها من التوبة والاستغفار وهو سبحانه افرح بتوبة عبده من الرجل إذا أضل راحلته بأرض دوّية مهلكة عليها طعامه وشرابه فأييس منها ومن الحياة فنام ثم استيقظ فإذا بها قد تعلق خطامها فى أصل شجرة فجاء حتى أخذها فالله افرح بتوبة العبد حين يتوب اليه من هذا براحلته فهذا الفرح العظيم الذى لا يشبهه شىء احب اليه سبحانه من عدمه وله الفرح احب اليه بكثير ووجود بدون لازمه ممتنع فله من الحكمة فى تقدير اسبابه وموجباته حكمة بالغة ونعمة سابغة**

**هذا بالاضافة الى الرب سبحانه واما بالاضافة الى العبد قد يكون كمال عبوديته وخضوعه موقوفا على اسباب لا تحصل بدونها فتقدير الذنب عليه اذا اتصل به التوبة والانابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار كان من النعم باعتبار غايته وما يعقبه وان كان من الابتلاء والامتحان باعتبار صورته ونفسه والرب سبحانه محمود على الامرين فإن اتصل بالذنب الآثار المحبوبة للرب سبحانه من التوبة والانابة والذل والانكسار فهو عين مصلحة العبد والاعتبار بكمال النهاية لا ينقص البداية وان لم يتصل به ذلك فهذا لا يكون إلا من خبث نفسه وشره وعدم استعداده لمجاورة ربه بين الارواح الزكية الطاهرة فى الملأ الاعلى ومعلوم ان هذه النفس فيها من الشر والخبث ما فيها فلابد من خروج ذلك منها من القوة الى الفعل ليترتب على ذلك الاثار المناسبة لها ومساكنة من تليق مساكنته ومجاورة الارواح الخبيثة فى المحل الاسفل فإن هذه النفوس اذا كانت مهيأة لذلك فمن الحكمة ان تستخرج منها الاسباب التى توصلها الى ما هى مهيأة له لايليق بها سواء والرب سبحانه محمود على ذلك ايضا كما هو محمود على إنعامه وإحسانه على اهل الاحسان والانعام القابلين له فما كل احد قابلا لنعمته تعالى فحمده وحكمته تقتضى ان لا يودع نعمه وإحسانه وكنوزه فى محل غير قابل لها ولا يبقى الا ان يقال : فما الحكمة فى خلق هذه الارواح التى هى غير قابلة لنعمته ؟ فقد تقدم من الجواب عن ذلك مافيه كفاية وان خلق الاضداد والمقابلات وترتيب اثارها عليها موجب ربويته وحكمته وعلمه وعزته وان تقدير عدم ذلك هضم من جانب الربوبية وايضا فإن هذه الحوادث نعمة فى حق المؤمن فإنها إذا وقعت فهو مأمور ان ينكرها بقلبه ويده ولسانه او بقلبه ولسانه فقط او بقلبه فقط ومأمور أن يجاهد أربابها بحسب الامكان فيترتب له على الإنكار والجهاد من مصالح قلبه ونفسه وبدنه ومصالح دنياه واخرته مالم يكن ينال بدون ذلك**

**والمقصود بالقصد الاول إتمام نعمته تعالى على اولائه ورسله وخاصته فاستعمال أعدائه فيما تكمل به النعمة على اوليائه غاية الحكمة وكان فى تمكين اهل الكفر والفسوق والعصيان من ذلك إيصال الى الكمال الذى يحصل لهم بمعاداة هؤلاء وجهادهم والإنكار عليهم والموالاة فيه والمعاداة فيه وبذل نفوسهم واموالهم وقواهم له فإن تمام العبودية لا يحصل إلا بالمحبة الصادقة وإنما تكون المحبة صادقة إذا بذل فيها العجب ما يملكه من مال ورياسة وقوة فى مرضاة محبوبة والتقرب اليه فإن بذل له روحه كان هذا أعلى درجات المحبة ومن المعلوم ان من لوازم ذلك التى لا يحصل إلا بها أن يخلق ذواتا واسبابا وأعمالا وأخلاقا وطبائع تقتضى من غيرها فكل احد يحب الاحسان والراحة والدعة واللذة ويحب من يوصل اليه ذلك ويحصله له ولكن الشأن فى أمر وراء هذا وهو محبته سبحانه ومحبة ما يحبه مما هو أكره شىء الى النفوس وأشق شىء عليها مما لا يلائمها فعند حصول اسباب ذلك يتبين من يحب الله لذاته ويحب ما يحب ممن يحبه لاجل مخلوقاته فقط من المآكل والمشرب والمنكح والرياسة فإن أعطى منها رضى وإن منعها سخط وعتب على ربه وربما شكاه وربما ترك عبادته فلولا خلق الاضداد وتسليط اعدائه وامتحان اوليائه لم يستخرج خاص العبودية من عبيده الذى هم عبيده ولم يحصل لهم عبودية الموالاة فيه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه فيه والعطاء له والمنع له ولا عبودية بذل الارواح والاموال والاولاد والقوى فى جهاد النفس ومنعها من خوضها وشهواتها محبة لله وإيثارا لمرضاته وطلبا للزلفى لديه والقرب منه وايضا فلولا ذلك لم تكن هذه النشأة الانسانية إنسانية بل كانت ملكية فإن الله سبحانه خلق خلقه أطوارا : فخلق الملائكة عقولا لا شهوات لها ولا طبيعة تتقاضى منها خلاف مايراد من مادة نورية تقتضى شيئا من الاثار والطبائع المذمومة وخلق الحيوانات ذةات شهوات لا عقول لها وخلق الثقلين الجن والانس وركب فيهم العقول والشهوات والطبائع المختلفة لاثار مختلفة بحسب موادها وصورلاها وتركيبها وهؤلاء هم اهل الامتحان والبلاء وهم المعرضون للثواب والعقاب**

**ولو شاء سبحانه لجعل خلقه على طبيعة وخلق واحد ولم يفاوت بينهم لكن ما فعله سبحانه هو محض الحكمة وموجب الربوبية ومقتضى الالهية ولو كان الخلق كله طبيعة واحدة ونمطا واحدا لوجد الملحد مقالا وقال : هذا مقتضى الطبيعة ولو كان لهذا العالم خالقا مختارا لوجدت فيه الحوادث على حسب ارادته واختياره كما روى الحسن او غيره قال : كان اصحاب محمد يقولون : جل ربنا القديم إنه لو لم يتغير هذا الخلق لقال الشاك فيه أنه لو كان لهذا العالم خالق لاحداثه بينا هو ليل إذ جاء نهار بينا هو نهار اذ جاء ليل بينا هو صحو اذ جاء غيم وبينا هو غيم اذ جاء صحو ونحو هذا من الكلام ولهذا يستدل سبحانه فى كتابه بالحوادث نارة وباختلافها تارة اذ هذا وهذا يستلزم ربوبيته وقدرته واختياره ووقوع كل الكائنات على وفق مشيئته فتنوع افعاله ومفعولاته من اعظم الادلة على ربوبيته وحكمته وعلمه**

**ولهذا خلق سبحانه النوع الانسانى اربعة اقسام : احدها لا من ذكر ولا أنثى وهو خلق ابيهم واصلهم ادم الثانى خلقه من ذكر بلا أتثى كخلق امهم حواء من ضلع ادم من غير ان تحمل بها انثى او يشتمل عليها بطن الثالث خلقه من انثى بلا ذكر كخلق المسيح عيسى بن مريم الرابع خلق سائر النوع الانسانى من ذكر وانثى وكل هذا ليدل عباده على كمال قدرته ونفوذ مشيئته وكمال حكمته وان الامر ليس كما يظنه أعداؤه الجاحدون له الكافرون به من ان ذلك امر طبيعى لم يزل هكذا ولا يزال وأنه ليس للنوع أب ولا أم ليس إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وطبيعة تفعل ما يرى ويشاهد ولم يعلم هؤلاء الجهال الضلال ان الطبيعة قوة وصفة فقيرة الى محلها محتاجة الى حامل لها وانها من أدل الدلائل على وجود امره طبعها وخلقها واودعها الاجسام وجعل فيها هذه الاسرار العجيبة فالطبيعة مخلوق من مخلوقاته ومملوك من مماليكه وعبيده مسخرة لامره تعالى منقادة لمشيئته ودلائل الصنعة وأمارات الخلق والحدوث وشواهد الفقر والحاجة شاهدة عليها بأنها مخلوقة مصنوعة لا تخلق ولا تفعل ولا تتصرف فى ذاتها ونفسها فضلا عن اسناد الكائنات اليها**

**والمقصود ان تنوع المخلوقات واختلافها من لوازم الحكمة والربوبية والملك وهو ايضا من موجبات الحمد فله الحمد على ذلك على ذلك كله اكمل حمد وأتمه أيضا فإن مخلوقاته هى موجبات اسمائه وصفاته فلكل اسم وصفه اثر لا بد من ظهوره فيه واقتضائه له فيمتنع تعطيل اثار اسمائه وصفاته كما يمتنع تعطيل ذاته عنها وهذه الاثار لها متعلقات ولوازم يمتنع ان لا توجد كما تقدم التنبيه عليه وايضا فإن تنويع اسبتب الحمد امر مطلوب للؤب محبوب له فكما تنوعت اسباب الحمد تنوع الحمد بتنوعها وكثر بكثرتها ومعلوم انه سبحانه محمود على انتتقامه من اهل الاجرام والاساءة كما هو محمود على اكرامه لاهل العدل والاحسان فهو محمول على هذا وعلى هذا مع ما يتبع ذلك من حمده على حمله وعفوه ومغفرته وترك حقوقه ومسامحه خلقه بها والعفو عن كثير من جنايات العبيد فمنههم باليسير من عقابه وانتقامه على الكثير الذى عفا عنه وانه لو عاجلهم بعقوبته واخذهم بحقه لقضى اليهم اجلهم ولما ترك على ظهرها من دابة ولكنه سبقت رحمته غضبه وعفوه انتقامه ومغفرته عقابه فله الحمد على عفوه وانتقامه وعلى عدله واحسانه ولا سبيل الى تعطيل اسباب حمده ولا بعضها فليتدبر اللبيب هذا الموضع حق التدبر وليعه حقه يطلعه على ابواب عظيمة من اسرار القدر ويهبط به على رياض منه معشية وحدائق مؤنقة والله الموفق الهادى للصواب**